مجلة بحوث كلية الآداب
جامعة المنوفية

البحث
٢

الفكر التاريخى
فى
كتابات الدكتور محمد حسين هيكل

إعـــداد

د / مرسى السيد مرسى الصباغ

المدرس بقسم اللغة العربية

كلية التربية ببورسعيد - جامعة قناة السويس

محكمة تصدرها كلية آداب المنوفية

العدد الستون

يناير ٢٠٠٥

د. محمد حسين هيكل ١٨٨٨- ١٩٥٦م(١)

ذلك الرجل الذي عاش حياة مليئة بالأعاجيب حافلة بالصراعات السياسية والاجتماعية والتاريخية جعلته في النهاية مصقول الفكر بمؤثرات مختلفة ، ودفعتنا إلي أن نلتمس هذا الفكر الحر من أجل أن نتعرف علي المبادئ السامية والأفكار العميقة التي كان دائما يرفع راياتها في سماء حياتنا خفاقة من أجل تحقيق الهدف الاسمي لأدبنا العربي وتراثنا الإسلامي .

هذا الرجل بفكره العميق وبإنتاجه الغزير ورؤاه النافذة يعتبر ميدانا فسيحا للبحوث الأدبية والنقدية ومجالاً خصباً لطلاب العلم والمعرفة ومنهلا صافياً لما في الصدور من حرج .

مفهوم التاريخ :-

يعتبر كل إنسان إلي حد ما مؤرخاً يحتفظ في ذاكرته بطرائف من الذكريات السارة والمحزنة وما ينفك ينشر صحائفها ويطويها حتي يصبح هو نفسه ذكرى من الذكريات وصدى من أصداء السنين الخالية(٢) . ولذلك اعتاد هذا الإنسان أن يقلل من شأن حاضره ويعلي من شأن ماضيه أو مستقبله وسبب ذلك أن الحاضر هو الواقع وهو الملموس وهو المحسوس ، وأما الماضي والمستقبل فيلعب فيهما الخيال ويسبغ عليهما كثير من الجلال ، والإنسان هو الوحيد بين مخلوقات الأرض الذي يشعر بنفسه ويشعر بالعالم حوله ويستطيع أن ينظر من خارج نفسه إلى نفسه وينظر من نفسه إلى العالم الذي يحيط به فدفعه ذلك إلي كثرة السؤال : من أنا في العالم ؟ وما علاقتي به ؟ ما معني هذه الحياة القصيرة التي يعقبها الموت ؟ كيف كان العالم قبلي ؟ كيف يكون العالم بعدي ؟ إلي كثير من مثل هذه الأسئلة ... وقد اشتركت الأساطير والفلسفة والدين في الإجابة عن هذه الأسئلة وتطورت نظرات الناس إلي الماضي والمستقبل حسب اختلاف البيئة الاجتماعية ، فكثير من الأمم قدسوا الماضي وعدوه هو العصر الذهبي ورأوا أن العصر الذي يعيشون فيه عصر انحطاط وتدهور (٣) من هنا فالتاريخ بالنسبة للأمم مثل الذاكرة بالنسبة للفرد وكل أمه مهما كانت مختلفة في مضمار

الحضارة لها نصيبها المقسوم من الذكريات الحلوة والمرة وهذا النصيب المقسوم هو ما يسمي تاريخها (٤)

إذا فالغريزة التاريخية تكاد تكون القاسم المشترك بين الأمم كافة بينما التاريخ يكون ممارسة إنسانية تتعلق وتتبلور مع الارتقاء في الدرجة الحضارية (٥)

موضوع التاريخ : -

من خلال ما سبق نستطيع أن نقول أن موضوع التاريخ هو المجتمع الإنساني وحكايته ... كيف كان ؟ وكيف صار إلى ما هو عليه الآن ، وأن معرفة الماضي لتبصرنا بالعوامل التي تؤثر في المجتمعات وبالتيارات والقوى التي تحركها وبالدوافع والمصادمات التي تشكله عامه كانت أم خاصة ..... ويخطئ من يظن أن التاريخ يتناول حياة العظماء من الأفراد فحسب وإنما يتكون من رواسب حياه ملايين من الرجال والنساء الذين تقل أهميتهم والذين لم يخلفوا اسما بل قدموا فقط حصتهم من المشاركة وأن حياة هؤلاء لتجعل من مادة التاريخ أشبه بالشعب المرجانية التي تكون من حياة الملايين من المخلوقات البحرية الصغيرة القليلة الأهمية (٦).

لكن هل التاريخ يعيد نفسه ؟ جمله مشهورة كثيرة الدوران علي الألسنة ، فما مدي صحتها ؟ هل المراد منها أن الحوادث نفسها بأشخاصها وزمانها ومكانها تعود مرة ثانية وثالثة ... بالطبع هذا المعني لاشك أنه باطل .... أما المعني المقبول والذي يظهر أنه صحيح فهو أن كل ما حدث من الزمان نتيجة لمقدمات ،فإذا تمت المقدمات ظهرت النتيجة لا محالة وإذا تشابهت المقدمات تشابهت النتائج وهذا الأمر يتكرر دائما علي نمط مطرد . فكلما حدثت مقدمات من نوع خاص حدثت النتيجة بعينها ؟ أما الأشخاص أنفسهم والمواقف نفسها والظروف نفسها فليس من المحتمل أن تتكرر.

وظيفة التاريخ :-

أيضا من خلال ما سبق يمكن القول أن التاريخ يكون عظة وعبرة بمعني أن الناس إذا رأوا الأسباب تتكون قرأوا النتائج قبل حدوثها وأنذروا بها قبل أن تكون وطالب المصلحون منهم الأمة بأن تستأصل الأسباب قبل أن تحدث النتائج الخطيرة فيدفعوا الشر قبل وقوعه إذا سمع قولهم .... وهذا منتهي العظة (٧) .

كذلك التاريخ يقوم بالكشف عن الحقيقة لأن التاريخ سجل الحوادث وخزانة التجارب ومرآة القياس وهو بعبارة أعم وأوفي (السراج الوهاج) الذي يتناول أيدي الأسلاف ليهتدوا بضوء الزمن الماضي إلي سواء السبيل في الزمن الحاضر ويكشفوا به ظلمات الزمن القادم (٨)

المؤرخ المثالي وأسلوب كتابه التاريخ :

بداية ... المؤرخ المثالي هو الذي يجمع بين ملاحظة العالم ونزاهته ، وبداهة الفنان وألمعيته ومكانة الفيلسوف وبعد غوره ... لذلك فهو الذي يكتب التاريخ ، لكن ليست القدرة علي كتابة التاريخ من الهبات التي تجود بها الطبيعة في يسر و سماح وإنما هي ثمرة من ثمرات الثقافة المتمكنة الأصلية.. و قد يبدو أنه من السهل اليسير أن ينظر الإنسان إلي الحقيقة التاريخية نظرة طبيعية و أنه مجرد المشاهدة كافية للقدرة علي تسجيلها وإثباتها.. لكن الأمر علي نقيض ذلك لأن صدق الرؤية والقدرة علي وصفها يتطلبان انطلاقا من أسر الخيالات والأوهام و الخرافات و معرفة بقوانين الطبيعة و طبائع البشر و سعة في النظر وأناة في إصدار الأحكام .

ومما هو جدير بالذكر أن ظهور "هومر" في الحضارة اليونانية سبق ظهور المؤرخ "هيروديت" بقرون عدة، وفي تاريخ الأدب الإيطالي نري ظهور الشاعر "دانتي" قد تقدم ظهور المؤرخين "ميكافيلي " "جويشكارديني"، وفي تاريخ الأدب الإنجليزي أظهر شكسبير براعة لا نظير لها في تصوير الأخلاق و المواقف في الوقت الذي كان المؤرخون يتعثرون في كتابة التاريخ حيث عهد شارل الثاني ، وبعض الأمم القديمة وصلت إلي مستوي عالي من الحضارة وقصرت مع ذلك في فن كتابة التاريخ (٩) لذلك فإن أغلب مؤرخي الإسلام لم يكونوا من المؤرخين الرسميين الذين تكلفهم الدولة بالرجوع إلي الوثائق و جمع الأسانيد و كتابة التاريخ وإنما كانوا يتقدمون بمؤلفاتهم التاريخية إلي المجتمع الإسلامي برمته و لا يعيشون في كنف الأمراء ولا يعتمدون على معونة الدولة ، ولم تخل كتاباتهم بطبيعة الحال من التأثر ببيئتهم ونزعتهم المذهبية وعقيدتهم السياسية و لكن حظهم من النزاهة كان موفورا إلي حد كبير فهم لم يكتبوا التاريخ إرضاء للخلفاء و الأمراء ، وإنما كتبوه بدافع من ميلهم إلي البحوث التاريخية وخدمة للمجتمع الإسلامي بوجه عام (١٠)

إذا فالكتابة التاريخية في حاجة إلي المواهب المتعددة لأن هناك علاقة أكيدة بين الأدب والتاريخ ، حتى قيل أن الأدب و التاريخ توأمان و قد أشتهر كبار المؤرخين قديما وحديثا وفي مختلف الآداب الأممية بقوة الأداء وعلو البيان وسخروا اللغة أداة طبيعية لرواية الحوادث وتصوير الأشخاص ووصف المواقف و المشاهد (١١)

هل التاريخ علم أم فن ؟

مع بداية القرن العشرين احتدم جدل عظيم حول هذا السؤال و لكل وجهة نظرة في هذا الموضوع فالداعون إلي اعتباره علما من العلوم له قواعده ومناهجه يحتجون بأنه اذا عد من الفنون فإنه (لا يكون في الإمكان التثبيت جديا من الصدق والدقة)(١٢) فاعتباره علما (يعطيه مزيدا من العناية في تثبيت الحق و تقريره و التأكد اليقظ من الدقة في كل نقطة عند تفحص الحجة و استخلاص نتائج منها، والوعي المستمر بأخطار التعرض للانحياز ..، والداعون إلي اعتباره فنا يخففون من وقع دعوتهم علي نفوس الآخرين بأنه ليس المقصود به الفن الخالص الذاتي ... وإنما يودون فقط التخفيف و التلطيف من جفاف المادة العلمية بإضافة لمسة فنية جمالية إليها ... فهو في نظرهم علم بمقدار ما هو بحث وتمحيص يقوم كما يقول المويلحي علي استجماع وقائع بتة تدرك بالنظر واستقراء أحوالها و هي متماثلة يسهل معها استنتاج حكم فيها ... وهو علم يتفق مع بقية العلوم المعنوية القائمة علي النظر و القياس و يتبع قاعدتها من حيث البحث و المنطق المعول عليهما في اكتشاف قواعدها)(١٣)

ومن هنا يجب عدم الخلط بين جانب (الحكم و الأداء) و جانب (الوقائع و الأحداث) و نخرج من ذلك إلي أن التاريخ علم له قواعد وقوانين العلوم الإنسانية و فيه فن البلاغة و الفصاحة في التعبير و حسن البيان ... و لا يصل المؤرخ إلي هذا الجمع بين العلم و الفن إلا بقوة الاقتدار و الجمع بين فراسة المنتقد و تحقيق العالم مع البعد عن الميل والهوى (١٤) ، يضاف إلى هذا أن التاريخ يشترك مع الفن في دعامات ثلاث هي الإنسان و الزمان والمكان ، وأن مادة المؤرخ تشمل فيما تشمل الفن بكافة أجناسه (١٥)

التاريخ بين المثالية والموضوعية :

ومع إيماننا بأن التاريخ علم وفن وأن العلم لا يمكن تفسيره إلا عن طريق العقل لذا يجب أن نعترف بأن الأولوية سوف تكون "للعقل" أو "الفكر" في تغيير الواقع أو تطوير المجتمعات و بالتالي فلا بد أن نغير أو نطور في الأفكار أولا.

بالطبع هذا عندما نطبقه علي التاريخ نجد قمة الحياة التاريخية و الحضارية التي يمكن أن يبلغها شعب من الشعوب هي في حياته الثقافية ، وعندما يدرك الفكرة التي تمثل حياته و يبلغ العلم بقوانينه و حقوقه و أخلاقه يصل إلي ذروة حياته الثقافية والحضارية، وبالطبع هذا صميم "المثالية في التاريخ".

أما بالنسبة "للموضوعية في التاريخ " فنجد أنها هي التي تؤمن بأن تطور المجتمعات البشرية و التاريخ البشري رهن بتطور الظروف الاقتصادية التي يأتي الفرد نتاجا لها .. بمعني أن أي حادثة أو مشكلة تحدث تكون ثمرة للعلاقة بين القوي المنتجة في المجتمع و بالتالي فالبناء الاقتصادي يكون هو الأساس الذي يتفرع عنه عدد من العلاقات الاجتماعية و الأيدلوجية و يترتب على الفكرة التي ترى (أن البناء الاقتصادي هو الذي يحدد طبيعة التغيير (١٦) بمعني أن أي تطور يحدث في المجتمع لا بد وأن يكون قد سبقه تغيير في الظروف الاقتصادية.

هيكل في المدرسة المثالية للتاريخ :

كما سبق القول بأن المدرسة المثالية هي التي تؤمن بأن الأولوية تكون للفكر و أن التطور في المجتمع دائما يبدأ من الفكر لذلك نجد أن الدكتور محمد حسين هيكل يؤمن بالفكرة ويضعها في مرتبة عالية ... يؤمن بما لهذه الفكرة (الروح) من أثر في أحداث الخلود للحياة بينما لا يؤمن بالمادة نظرا لما تسببه من توقف لهذه الحياة.

لذلك نجده يري في أكثر من موضع في مؤلفاته بأنه (ليس هناك ... خالد علي الحياة غير الفكرة ... بل هل لغير الحكام حياة؟... لقد فني روسو، وفني روفائيل ، و فني بيتهوفن ، و لقد فني من قبلهم كبار الفلاسفة و الكتاب و الأنبياء و لكن اسمهم جميعا بقي خالدا لأنه اقترن بالفكرة الخالدة في مظاهرها المعددة) (١٧)... خلدوا علي الحياة لأن الفكرة وحدها الحياة ... الفكرة هي القوة المنظمة للعالم و المسيطرة عليه

و المحتلة كل ذرة من ذراته و الممسكة بمظاهره المختلفة في دقيق نظامها و بديع أحكامها...

هي الروح التي تجعل الحياة و الوجود و الأزل و الخلود ... أما المادة فلباس كثيف كثير التحول و الاضطراب... وتوجهه الفكرة كما تشاء و توقفه حيث تريد لذلك نجده يكشف لنا سر تشييد المصريين القدماء للأهرامات و المعابد التي لا تزال باقية حتى الآن في قوله (إن الفكرة التي أقامت هذه الأماكن فكرة خالدة و لذلك تبقي جديدة أمام كل جديد ... وطبيعي أن يلتمس الناس لذكر الفكرة الخالدة مظهرا يبقي علي الدهر أطول زمن يستطيع الإنسان أن يضمن بقاءه عليه .. هذا هو السر في تشييد المصريين القدماء للأهرام و المعابد التي لا تزال باقية تشهدها أعيننا رغم السنين وكرّ القرون .. أنهم شادوها رمزا لمعان باقية .. فيجب أن يكون لها حظ في البقاء ما لهذه المعاني (١٨)

إذا فمن هنا نجد أن هيكل بهذه النظرة يكون مثاليا ..بمعني أنه يعلي من شأن الفكرة علي حساب المادة الفانية ، وبالتالي فإننا نجده ينتمي إلي المدرسة المثالية في التاريخ .. من تلاميذها في الأفكار و المبادئ و الآراء و التي سوف يتضح لنا أثرها علي فكرة التاريخي .

رؤية الدكتور هيكل لمصدر الحركة في التاريخ :

منذ الماضي والي عهد قريب ظلت نظرية الرجل العظيم هي السائدة كمصدر للحركة في التاريخ ... نلاحظ ذلك حتى في السير الشعبية التي يمتزج فيها الخيال بالواقع و الأسطورة بالحقيقة .. وكان التصفح لأي كتاب في التاريخ نجده يدور بالدرجة الأولي حول سير الأبطال وكيف قهروا الأعداء أو عبروا السدود واستطاعوا الطيران في الجو علي بساط الريح وظلت هذه النظرية (شامخة الذري في موكب التاريخ الحافل تشد أحداثه إليها شدا عنيفا لا يستطيع منها فكاكا وكأن البطل هو الصانع الوحيد للتاريخ.. وغدا التاريخ علي تلك الصورة تاريخ أفراد يكيفون سير الواقع أن لم يكن علي هواهم.. فعلي أقل تقدير نتيجة لتفاعل إرادتهم أو تصادمها مع إرادة أبطال آخرين و صار التاريخ في هذا الإطار تاريخا للدولة وتاريخا لحكامها وساستها وقادتها حتى الأعمال العظيمة التي أرست قواعد الحضارة ودفعتها نحو الإرتقاء هي الأخرى من صنع هؤلاء الأبطال (١٩) ، لكن الملاحظ وإن سادت هذه النظرية في الغرب حتى

القرن ١٩ إلا أن العرب في كتابتهم للتاريخ و السير لم يجعلوا الفرد هو كل شيء بل أرخوا للمدن ، كما أرخوا للأعلام والولاة والقضاة والأدباء .. (وذلك لأن البطل في التاريخ الإسلامي لم يكن غير ظاهرة اجتماعية لروح العقيدة الرئيسية التي سادت المجتمع الإسلامي .. يستمد كل فضائله من تعاليم الشريعة و قد سوت الشريعة بين الناس إلا في طاعة الله (إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لا فضل لعربي علي أعجمي إلا بالتقوى و العمل الصالح) ثم إن الخوارق و المعجزات و العبقريات الفذة التي سيطرت علي مشاعر مؤرخي الإغريق و الرومان من تأثير الأساطير القديمة التي حملتهم علي نظرية (الرجل العظيم) لم يكن لها نظير في الفكر الإسلامي الذي حرر العقل من آثار الماضي (٢٠) إذن فالبطل أو الفرد في التاريخ الإسلامي والسير و التراجم العربية لا يصنع التاريخ، و لكنه في إطار صورة تمثل عصره وبيئته ولا يعدو كونه ظاهرة اجتماعية تتفاعل فيها أحداث عصره ومن هنا يمكن تأويل مقولة رفاعة الطهطاوي (إن إرادة الله محور فلسفة التاريخ ... و التأثير إنما هو للحكيم القادر)

ومن ثم ندرك بسهولة أن مصدر التأثير و الحركة وتوجيه الأحداث لا يمكن أن يكون من صنع الفرد وحده أو الظروف وحدها أو البيئة وحدها فقد يظهر البطل في بلد لا تقدر مواهبه فيكون كما يقول المتنبي :

صح مني العزم و الدهر أبي

وقد يظهر البطل في صورة نبي أو فيلسوف أو شاعر أو قائد عسكري و لكنه في جميع الأحوال نتاج لتعاون البيئة المكانية و الظروف، ولا يمكن فصل الأحداث أو الظروف عن الإنسان وعن البيئة المكانية نقطة الارتكاز في حركة التاريخ وما يطرأ علي هذه البيئة من تغيير بفعل الإنسان (٢١) وخير مثال لذلك شخصية (عنترة) الشاعر الذي يشعر في أعماق نفسه بأنه حر فيأبي إلا أن يؤكد حريته و لكن ظروف بيئته التي تؤمن بالطبقية لا تعطيه حريته إلا عندما تظهر ظروف أخري أجبرت الواقع علي أن يتغير، فعندما أغارت طئ علي عبس كانت قدرات عنترة (الإنسان البطل) هي التي غيرت وضع المجتمع من الهزيمة إلي النصر ومن العبودية إلي الحرية .

وإذا حاولنا أن نتعرف علي رؤية الدكتور / محمد حسين هيكل لمصدر الحركة في التاريخ من خلال أعماله فإننا نجده لأن يشذ عن المفهوم التكاملي بين (الإنسان ، المكان . الزمان) فالإنسان أيا كانت صورته (لابد لكي يكون شخصية تاريخية أن يتصف بالعظمة تلك التي يراها هيجل في القدرة علي إدراك العصر والتعبير عنها)،

ويراها كارليل (عقلا يعرف به العظيم حاجة عصره وعزما يمضي به إبلاغ العصر إرادته) ، و يراها ليفيس (في الأدباء القادرين علي خلق وعي إنساني) ولا يشذ عنهم إدوار كار حين يصف الرجل العظيم بأنه (يمثل شيئا علي الدوام فهو إما يمثل القوة القائمة فعلا أو القوي التي يساعد على خلقها)(٢٢)

وهذه العظمة نفسها يراها الدكتور محمد حسين هيكل في البطل الذي يتصف بالصفات الآتية :

فإذا كان الرجل العظيم عسكريا فلا بد وأن يكون عبقريا و مغوارا .. فمثلا (كان خالد عبقريا في الحرب لا يغلب .. أتاه الله موهبتها ... كان بطلا مقداما و فارسا مغامرا وقد سماه رسول الله صلي الله عليه وسلم سيف الله المسلول (٢٣)

وإذا كان الرجل العظيم حاكما فلا بد وأن يكون عادلا و رحيما وحازما فمثلا (كان أبو بكر الصديق مثال العدل و الرحمة مجتمعين .. أدي هذا العدل بين الناس إلي اطمئنانهم جميعا وأدي حزمة إلي مهابة الناس إياه و إكبارهم له ولا حاجة إلي القول بأن مثال أبي بكر إسوة عماله في سائر بلاد شبه الجزيرة وإلي طمأنينة العرب إلي عدل الخليفة وأنصافه وإلي بره ورحمته وإلي حكمته وحسن سياسته كانت من العوامل ذات الخطر في نجاح سياسته (٢٤)

وإذا كان الرجل العظيم معلما وحكيما فلا بد وأن يكون قدوة وجرينا ووديعا وسمحا سريع التأثير و التأثر .. عظيما فيه من الحكمة ورجحان العقل ما يدعو إلي الإدراك و التعبير .. (حيث كان أبو بكر ... رجلا رقيق الخلق ... رضي النفس وديعا سمحا أسيفا سريعا إلي التأثر وإلي مشاركة البائس في بؤسه و الضعيف في ضعفه .. تنطوي نفسه علي قوة هائلة لا تعرف التردد ولا الأحجام و علي قدرة ممتازة في بناء الرجال وفي إبراز ملكاتهم ومواهبهم وفي دفعهم إلي ميادين الخير العام ينفقون فيها كل ما آتاهم الله من قوة ومقدرة (٢٥) ولقد كانت هذه العبقرية نابعة من عظمته الصامتة التي كانت تأبي أن تتحدث عن نفسها لأنها عظمة الروح و عظمة الإيمان الحق بالله و بما أوحي إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم (٢٦)

و إذا كان الرجل العظيم أديبا فلا بد وأن يكون ملما بوسائل العلم و الفلسفة لأن ذلك يجعله قادرا علي أداء الرسالة بأكمل وجه .. فيقول (لكي يكشف الأديب للناس عما في الحياة من حق وجميل وليؤدي الرسالة الملقاة علي أدباء العصور جميعا يجب أن

يتغذى ما استطاع من ورد الفلسفة ومن ورد العلم .. وهو كلما كان أكثر غذاء من هذين الوردين كان أقدر علي أداء الرسالة وكان أديبا حقا (٢٧)

وبهذا يمكننا أن نفسر للدكتور هيكل إعجابه الشديد بالأديب الذي استطاع أن يحدث التطور بما استطاع أن يدركه من آداب الأمم السابقة و معارفها و فلسفتها .

ومن هنا أخذ يشيد بشيوخ الأزهر وبرجال مدرسة دار العلوم الذين قاموا بالنهضة الأدبية و قاموا بتعليم الناس أصول التعبير عن هذه النهضة (٢٨) ، كما أن هذا أيضا يفسر لنا سر إعجابه بالمفكر السياسي (جان جاك روسو) الذي قضي حياته موسيقيا قبل أن يكون كاتبا .. فلما انتقل إلي حياة الأدب و التحرير لم ينس التجاوب الموسيقي في أسلوبه و بهذا الأسلوب الموسيقي الوجداني و بنغمات تستهوي الفؤاد توقع عليها أقوي الأفكار وأسماها وأبدعها سالت الكتب القديمة التي تركها جان جاك روسو فترك ميراثا خالدا يتشارك فيه أهل هذه الأجيال و الأجيال التي بعدها (٢٩)

والمكان عند الدكتور هيكل لا يقل أهمية عن الإنسان أو البطل الذي يعتبر هو مصدر الحركة في التاريخ حيث تظهر (أي البيئة المكانية) واضحة جلية لا تشوبها شائبة ، و لذلك نجدها في مؤلفاته التي تشمل الأماكن المقدسة في الشرق الأوسط (٣٠)ومعابد الفراعنة و الأهرامات (٣١) والبيئة العربية قبل الإسلام(٣٢) و البلاد التي نزل فيها الوحي (٣٣) و البيئة المصرية في عهد الاحتلال (٣٤)

و لعلنا نجد الدكتور هيكل بعد ذلك يطل سر تركيزه علي البيئة المكانية و ربطها بالفكرة المثالية التي يسعى دائما إليها فيقول (لست أعدو الحق حين أقول أن الأماكن المقدسة تبقي علي القرون جديدة أمام كل جديد لأنها تعتبر في نظر الذين يحجونها مونلا لأرواحهم وملاذا لقلوبهم المتعطشة إلي التطهر ترجوه حيثما نكون (٣٥)

إذا فالدكتور هيكل ركز علي عنصر المكان و لم يغفله .. هذا العنصر الذي يمثل العنصر الثاني في أركان العملية التاريخية و الذي يستحق أن يفرد له دراسة كاملة مستقلة .

أما الزمان فقد ركز الدكتور هيكل علي هذا العنصر بوصفه الركن الأول للتاريخ لذلك نجده يصور الحياة المصرية بكافة أحداثها السياسية و الإقتصادية و العلمية و الدينية (٣٦) .. كما نجده أيضا يصور أحداث الدولة الإسلامية الكبرى وما أصابها من تقدم في بعض الفترات و ما أصابها من عطب في البعض الأخر وما استتبع ذلك من إنتعاش

للأحوال السياسية والاقتصادية و العلمية ثم تدهور لهذه الأحوال بسبب هذا التقدم و التدهور (٣٧)

كذلك الحال الذي كان عليه الريف المصري وما كان يدور فيه من صراعات وتقلبات في الحياة العامة لأهل هذا الريف و بعكس الحال في المدينة المصرية وما كان يموج فيها من تيارات متضاربة و تقلبات للأحداث المختلفة (٣٨) .. الخ ما تحمله مؤلفات الدكتور هيكل من دراسات نقدية و تأليفية يصور فيها أحداث التاريخ سواء لفترة زمنية معينة أو لفترات بعيدة .

وقبل أن نختم الحديث عن رأي الدكتور هيكل في مصدر الحركة التاريخية يجب أن نعرف أن جوهر رأيه في ذلك هو أن الحدث وليد نفسه أو وقته ، و أن البطل ليس وليد نفسه وإنما هو نتيجة لعلة سابقة ومقدمة لأثر لاحق ... وأن هذا الرأي صدي لفكر ابن خلدون في العلية ... وهذا ما سوف يتضح عند الحديث عن التأثيرات الخلدونية في فكر الدكتور هيكل .

هيكل بين الموضوعية والذاتية :-

بداية الموضوعية Supjectif معناها أن يلتزم المؤرخ الحياد و النزاهة و أن يبتعد عن الغرض و الهوى حينما يكتب وعليه أن يخرج ذاته و نفسه بعيدا عن دائرة الموضوع الذي يبحثه حتى لا يسقط من ذاتيته عليه ما يخرج به الحقيقة و الصدق وأن الذاتية Opjectif معناها الانطباعية التأثيرية أي تأثير الحدث الخارجي و الرأي الآخر علي نفس الإنسان و الضغط عليها Press و المذهب التأثيرى كما في النقد الأدبي معناه كما يقول (جوته)(أن تقرأ الكتاب و تسمح له أن يؤثر فيك وتخضع نفسك إخضاعا تاما لتأثيره .. حينئذ وحينئذ فقط تستطيع أن تصل إلي حكم صحيح) ، وعنه يقول أيضا (كارليل) (أن الناقد يقف مترجما بين الملهم وغير الملهم وبين العبقرية والذين يستمعون لحن كلماتها ويقتبسون لمحة من معناها ولكنهم لا يفهمون سرها العميق (٣٩)

أما الدكتور هيكل فنجده في هذه القضية يدعو في أكثر من موضع إلي التحرر من الهوى و الأحكام السابقة و تحري الدقة ... فيقول (علي المؤرخ أن ينظر للناس و الحوادث بعين الناقد الدقيق لكن لا يترك لشهواته وأهوائه يرسل القول علي عواهنه

بل يتقدم للقارئ دائما بالبرهان .. هنالك يجد القارئ نفسه مدفوعا ليعتقد صحة ما يقرأ و يؤمن به) (٤٠)

إذا فهو يطالب من يتصدى للتاريخ بأن يلتزم الحيدة التامة فلا يميل به الهوى فيغير عن الحقيقة التاريخية شيئا يجعلها بعيدة عن التاريخ ومن هنا كان (المؤرخ مطالبا قبل كل شيء بأن يثبت حقيقة الواقع و الأشياء التي يتكلم عنها فإذا لم يتمكن من إثباتها كانت غير تاريخية بالمعني العلمي وسواء كان في إثباتها إظهار لفضيلة أو بيان لرذيلة فليس ذلك ليجعل المؤرخ يغير من حقيقتها شيئا وإلا خرج عن أن يكون مؤرخا (٤١) كما أنه يطالب المؤرخ بأن يخرج للقارئ الفكرة العامة و النقاط النافعة الظاهرة في كل الحوادث التي يتناولها بالسرد و التفسير فيقول :-

(إن الواجب علي الكاتب الذي يسرد وقائع التاريخ أن يبين للقارئ النقط النافعة الظاهرة فيما يريد أن يكتب عنه فإذا فرغ من ذلك خرج منه بفكرة تدل علي نفس الكاتب ومبلغ تقديره للحوادث) (٤٢)

كل هذا كان إلحاحا منه في الدعوة إلي الموضوعية و الحيدة.. لكن علي الرغم من هذا الإلحاح إلا أنه شذ عن القاعدة التي وضعها لنفسه و لغيره خاصة في الجانب التطبيقي لمؤلفاته.. واتجه إلي الجانب التأثيري أو الانطباعي .. فنجد :-

(١) أسماء الكتب التي ألفها تعكس هذه النزعة التأثيرية التي تعلي من شأن الفرد فالمرتبة الأولي عنده للفرد و المرتبة الثانية للفعل .. ألا تري معي (زينب – جان جاك روسو – عثمان بن عفان – الصديق أبو بكر – الفاروق عمر) علي العكس من العقاد الذي يهتم بالآثار التي خلفها الفرد ذاته .. ألا تري (ابن الرومي – حياته من شعره) ، حياة قلم ، لعبقريات)

(٢) تتجلي هذه الانطباعية أيضا في إعجابه الشديد بشخصيه جان جاك روسو وبشخصية الصديق أبو بكر – فمثلا يقول عن الصديق أبي بكر ...

(قلت ومالي لا أبدأ بسيرة الصديق ؟ لقد كان أبو بكر صفي محمد و خليله و كان أكثر أصحابه اتصالا به و كان لذلك أكثر تتبعا لتعاليمه وامتثالا إياها .. وهو بعد رجل رقيق الخلق رضي النفس ثم أنه إلى رفقه ورقته ... هو الخليفة الأول ... هو الذي أقر الإسلام حين حاول المرتدون من العرب أن يقوضوا ركنه) (٤٣)

(هنا يقف الإنسان خاشعا يملكه الإعجاب بأبي بكر وبإيمانه و ثباته و حزمه) (٤٤)

(٣) الإكثار من ضمير المتكلم في مؤلفاته و الالتفاف منه إلي المخاطب هو في الحقيقة محاولة منه لجعل النزعة التأثيرية الانطباعية تمتد منه إلي المخاطب ففي معظم كتبه نجد (هذا في رأينا هو السبب في أن كثيرين من الذين يكتبون قصصهم يقفون عند القصة الأولى (٤٥) ، (جال بخاطري .. أن أقوم بدراسات في تاريخ الإمبراطورية الإسلامية)(٤٦) ، (ندع هذا الجواب إذن ونقف مع عمرو بالفسطاط و نسايره إلي مقر القيادة بحصن بابليون)(٤٧) ، (أراني أميل و أن كنت لا أقطع به و يدعوني إلي هذا الميل)(٤٨) ، (لست أعدو الحق حين أقول أن الأماكن المقدسة تبقي علي القرون)(٤٩) ، (لا أريد بالحديث عن عمرو في هذا المقام أن أتهمه بالتقصير) (٥٠)

٤- لقد كان لهذه الانطباعية أثر ظاهر في رؤيته للأدب القومي والحضارة كأساس نظري لتفسير ما طرأ على الواقع من تغيير فدعوته إلي ربط مجد مصر الحاضرة بمجدها القديم وإعلاؤه من شان الثقافة الأوربية بالنسبة لدولها هي انعكاس لمدي إيمانه بالانفتاح العقلي وبوحدة العقل الإنساني وبالدورات الحضارية وانعكاس أيضا العجابة الشديد بالفكر الاوربي وبطبيعة الحياة الاوربية بعد ما نهل من ثقافتها وعاش في بعض بلادها

إذا فكل ما سبق يدعونا إلي القول بأن الدكتور هيكل مؤرخ انطباعي تأثري فنان

منهج هيكل في البحث عن الحقيقة التاريخية

العقل هو اعدل الأشياء قسمة بين الناس ، وهذا هو مبدأ المساواة في العقل وفي القدرة على الوصول إلي الحقيقة ...وقد يكون البعض أذكى من البعض الأخر لكن القدرة على التميز والحكم السليم واحدة بين الناس جميعا ... هذا ما يقوله ديكارت في كتابه (المقال في المنهج) (٥١) ، ولهذا وضع لهذا العقل منهجا قويما ثم وضع لهذا المنهج قواعد وأسس يجب أن يتبعها العقل في البحث عن الحقيقة في العلوم المختلفة ..هذه القواعد هي :-

١- البداهة واليقين ٢- التحليل ٣- الترتيب ٤- المراجعة

وإذا أردنا أن نتعرف على المنهج الذي اتبعه الدكتور هيكل في البحث عن الحقيقة التاريخية فإننا لا نبعد ولا نشذ عن هذا المنهج الذي اتبعه ديكارت حيث نجد الأتي :-

١- البداهة واليقين :- و هذه معناها ألا يقبل المؤرخ شيئا على أنه حق ما لم يعرفه بالبداهة وفي هذا الصدد يقول هيكل (إن أول واجب على الإنسان أن يديم البحث عن الحقيقة وألا يكتفي بما يظن انه وصل إليه منها) (٥٢) ، ثم بعد ذلك يتطرق بنا الدكتور هيكل إلي المجال التطبيقي ليرينا وبصورة عملية انه يتبع قاعدة البداهة واليقين في معالجته التاريخية فنراه يقول (لما بويع أبو بكر خاطبه رجل من المسلمين بقوله (يا خليفة الله) فلم يدعه أبو بكر يمضي في حديثه بل قال له لست بخليفة الله ولكن خليفة رسول الله ... هذه عبارة أوردها المؤرخون حجة على تواضع ابي بكر وصدق تقديره ... وهي في رأيي تستوقف النظر لمعني أعمق في دلالته من هذا المعني المفصل بشخص أبو بكر وخلقه وذلك ما فيها من قوة الابانة عن تصور المسلمين الأولين لفكرة الحكم) (٥٣)

إذا فمن العبارة السابقة نجد أن الدكتور هيكل لا يقبل ما جاء به المؤرخين على انه حق بل تجنب العجلة في الحكم على الوارد على عقله بل ادخل عليه بعد ذلك ماأملاه عليه عقله

٢- التحليل :- وهذا هدفه كشف كل الحقائق البسيطة وغير البسيطة وفي هذا الصدد يقول الدكتور هيكل (أن أول واجب على الإنسان ... أن يجعل دأبة تقليب هذا الذي وصل إليه فينتقي عنه ما يطق به من زيف ويري من خلاله أفاقا جديدة لهذه الحقيقة العظمي التي تتراني لنا من وراء الحجب) (٥٤)

ثم بعد ذلك أيضا يتطرق بنا إلي المجال التطبيقي فنراه في كتابه (عثمان بن عفان) تناول في الفصل الأول منه ملابسات اختيار الخليفة الثالث للقيام بأعباء الحكم والناس لم يفيقوا من الذهول الذي أصابهم لمصرع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو لم يقتصر في هذا الفصل على إثبات ما حدث من اجتماع الستة الذين حصر عمر فيهم الخلافة من بعده وما أثير فيه من مناقشات بل بأنه أشار إلي فكرة الشورى عند عمر وكيف انه تردد بين أن يترك أمر تعيين الخليفة للصحابة يتشاورون فيه بعده إقتداء برسول الله صلي الله عليه وسلم وبين أن يعين خليفته إقتداء بأبي بكر حين اجتمع رأي الصحابة عليه وإذ تجتمع البيعة لعثمان ... يبحث الدكتور هيكل في ملامح الخليفة الجديد وفي طباعه وفيما يمكن أن تؤثر به هذه الطباع في سياسة الدولة في عهده (٥٥)

إذا فالدكتور هيكل اتبع فيما سبق من أجل الكشف عن المجهول الطريقة التحليلية ، والمتتبع لباقي فصول الكتاب(٥٦) يري انه لم يحد عنها بل ازداد تمسكا بها وركونا إليها

٣- الترتيب :- وهذه يراد بها أن نرتب أفكارنا فنبدأ بأبسطها ثم نتدرج قليلا حتى نصل إلي معرفة أكثر و بالطبع هذه العملية لا يمكن أن يغفو عنها الدكتور هيكل لذلك نجده يقول (إني لم أقم بمجهود عقيم حين فكرت في جمع فصول كتاب ثورة الأدب وتنسيقها ، ثم نفذت الفكرة (٥٧)... ثم يحدو بنا الدكتور هيكل إلي الجانب التطبيقي فنراه يقوم بترتيب الأفكار ترتيبا منطقيا وذلك كما في كتاب (عثمان بن عفان) الذي نجد فيه الأفكار التالية :-

- حديث الشورى وبيعه عثمان
- عثمان بين أمسه وغده
- الفتح في عهد عثمان
- حكومة عثمان
- نهاية حياة عثمان

٤- المراجعة :- بالطبع هذه القاعدة تهدف إلي التأكد من أن عملية الترتيب لم تغفل أي جزء من أجزاء الشكل التي نريد حلها وإذا حاولنا تطبيق هذه القاعدة على الدكتور هيكل فإننا سوف نخرج من وراء هذا التطبيق إلي أن الدكتور هيكل كان قبل أن يخرج لنا عمله كان يتأكد بداية من عملية الترتيب والدليل على ذلك أننا لم نجد لديه أفكارا قد جانبها السهو أو الخطأ

التأثيرات الخلدونية في فكر الدكتور هيكل :-

يعتبر عبد الله بن خلدون وفكره علامة بارزة على قدرة العقلية العربية على التفوق والسبق والابتكار ... ذلك الرجل الذي نظر إلي التاريخ نظرة واسعة النطاق استطاع معها أن يظفر منها بشئ يستحق أن يدرس في ذاته ولذاته بعيدا عن الاعتبارات والنتائج العلمية التي لم يهتد أحد قبله إلي فصلها عنه هذا -- وسوف نحاول في إيجاز أن نلمح بعض الآراء في فكر ابن خلدون وتأثر بها الدكتور هيكل في كتابة التاريخ ، وبالطبع لن يتيسر لنا هذا إلا من خلال النقاط الآتية:-

- تفسير الدكتور هيكل للأحداث التاريخية في ظل قانون العليه ... أي ربط السبب بالمسبب يظهر لنا في أكثر من موضوع في مؤلفاته ... فمثلا نجده يقول (أن كل حركة من حركات نفس المؤرخ يظهرها قلم ... إنما دعا إليها أمر معين يستدعيها (٥٨) هذا التفسير عند هيكل كان بمثابة الصياغة النظرية ... إلا أنه أيضا يأتي لنا بالتطبيق العملي في تعليله لكثير من الأحداث التاريخية ... فعلى سبيل المثال نجد تفسيره لتدهور دولة الروم بأنه ناجم عن الثورات التي كانت تقوم بسبب النزاع بين الفرق المسيحية حينا والنزاع على العرش حينا أخر ... كما انه أيضا يفسر سبب تدهور دولة الفرس بأنه ناجم عن اضطراب البلاط وانتشار الدسائس وتنازع الطامعون في العرش واتخاذ البعض للغدر سلاحه لتولي أمورها ... تريد الحكم لتستذل به رقاب السواد وتبلغ باستغلاله كل ما تصبو إليه من أسباب النعمة والمتاع (٥٩)

بالطبع هذه النظرة عند الدكتور هيكل هي صدي لقول ابن خلدون (أننا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والأحكام وربط الأسباب بالمسببات (٦٠) ، كما أنها أيضا صدي لنعيه على أن سبب تدهور الحضارات ناجم عن الخلافات المستحكمة بين الملوك وأنسابهم واعتياد حياة الترف والدعة)(٦١) .

- ما دامت الأحداث نتائج طبيعية لأسباب سابقة فمعني ذلك أن المصادفة لا يمكن أن نتعرف بها لذلك نجد الدكتور هيكل ينكر المصادفة بشدة فنجده يقول كيف حدثت المعجزة ...كيف تغلب العرب مع قلة عددهم وضعف حضارتهم وتأخر علومهم وفنونهم على الفرس والروم ... أهي المصادفة التي لا تفسير لها من سنن الكون كلا فلو أن ما حدث في عهد أبي بكر أثمرته الصدفة لما كتب له أن يبقي وان يتصل على الأزمان (٦٢) ، فالدكتور هيكل ينكر المصادفة التاريخية انطلاقا من أيمانه بالعليه وبالطبع فان هذا الانكار للمصادفة يعتبر من تأثيرات ابن خلدون لأن أحداث التاريخ تتصف بهذه المنطقية وترفض المصادفة ومن ثم فان الأيمان بالحتمية أو الجبر التاريخي أو الضرورة يعتبر لازمة من لوازم الدكتور محمد حسين هيكل في تفسير الأحداث التاريخية .. والفرق بين المصادفة والضرورة هو أن ما يمكن أن يخضع للقوانين العامة يعد مصادفة ولا سبيل إلي العلم بها ، وحتى المصادفة حين تدق أبواب الخطر للرجل العظيم لا بد وأن تتخيره من ذوي المواهب .... فمن المؤكد أن تجربة جيمس وات قد مرت بالملايين من قبله ، ولكن جيمس وات هو الذي اكتشف قوة البخار ودق بهذا الاكتشاف أبواب عصر جديد (٦٣)

والدكتور هيكل يؤمن بالحتمية والجبرية الناتجتين عن العلية فمثلا نجده يرى أن عملية تغلب العرب على الفرس والروم ليس وليد المصادفة وإنما هو نتيجة حتمية قضت بها سنة الكون .... ومن سنن الكون أن الأمم والحضارات يصيبها الهرم والشيخوخة ويدب الفساد فيها ويؤدي الانحلال إلي تدهورها (٦٤) هذه الرؤية من الدكتور هيكل صدي لما يراه ابن خلدون من أنه متي بدأ اضمحلال الدولة اضمحلال الدولة فلا يمنعه شئ ومهما اتخذ الملك من التحوطات واجتهد في إصلاح الخلل فلا يستطيع أن يغير ما أراد الله) (٦٥)

- إيمان الدكتور هيكل بالتطور وديناميكية الحياة هو في الواقع يبشر ببعد جديد في فهم التاريخ استقاه من فكرابن خلدون ... لذلك نراه يقول (أن كل ما تحت الشمس جديد لأنه دائم التجديد والشمس نفسها تتجدد مطلع كل نهار وكل إنسان منا جديد ... وهو كل يوم متجدد ٠٠) (٦٦)

وبالطبع هذه الرؤية من الدكتور هيكل صدي لما يراه ابن خلدون من أن (أحوال العالم والأمم عوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلي حال (٦٧)

- من هذه التأثيرات الخلدونية التي تمثل تحولا كبيرا في فكر الدكتور هيكل رؤيته للحضارة والأدب القومي كعامل من عومل التغيير في مسار حركة التاريخ ؛ لذا فقد استمد الدكتور هيكل هذه الرؤية من فكر ابن خلدون عن التشابه والتباين وتأثيرات البيئة والتوفيق بين الدين والفلسفة والدورات الحضارية (٦٨)، فهو يري هذا التشابه والتباين من خلال رؤيته للصلة الوثيقة بين مصر القديمة ومصر الحديثة ... فيقول (بين مصر الحديثة و مصر القديمة اتصال نفسي وثيق ، وهذه حقيقة تشعر بها أنت ويثبتها العلم .... فهذا الدم الذي يجري في عروقهم يجري في عروقك وهذه الانفعالات النفسية التي كانت تدفعهم في حياتهم هي التي تدفعك في حياتك وأنت محكوم عليك طائعا أو كارها أن تخضع بحكم قانون الوراثة لما أورثوك إياه (٦٩)

إذا فحياة التاريخ القديم قريبة التشابه من التاريخ الحديث ولا سبيل إذا إلي إنكار ذلك الاتصال النفسي الوثيق الذي يربط تاريخ مصر منذ بدايته إلي عصرنا الحاضر كما أنه يري أن من عوامل قيام الحضارة (صلة الإنسان بالوجود كله .. بهذه الأفلاك التي تري وبهذه السماوات التي تعمرها ، وبالروح الفياض بالضياء .. هذه الروح التي لا نور ولا حياة ولا وجود من دونها .. هذه الصلة يجب أن تكون مطمع كل باحث وكل

كاتب وان تكون رسالة كل أدب يطمح في أن تقوم على أساس حضارة سليمة تكفل للإنسانية المجد والسعادة (٧٠)

إذا فما سبق كان عبارة عن صدي عميق في إيمان الدكتور هيكل بالمطالبة بالأدب القومي وبالتواصل الحضاري .. وجدير بالذكر أن ابن خلدون هو أول من طرح نظرية الدورات الحضارية وامتد صداها إلي مفكري الغرب مثل (مونتسكو) (وشبلنجر) وعرض لها (رفاعة الطهطاوي) (المويلحي) وتتلخص في (الانتقال بالمجتمع من الهمجية إلي البداوة ثم إلي ذروة الحضارة ثم تبدأ الحضارة في الانكسار وتنتهي في هذا المجتمع لتظهر في مجتمع أخر) ، وهذا بالطبع يدعم فكرة التواصل الحضاري والأخذ والعطاء بين الشعوب هذا الإضافة إلي أن فكرة الدورة الحضارية إسلامية المنشأ والمنبع ويؤيد ذلك قول الله تعالي ((الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا)) (٧١)

كما أن وحدة الإنسانية والجنس والتواصل والتعارف أساس جوهري في العقيدة الإسلامية((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .. أن أكرمكم عند الله اتقاكم)) (٧٢)

هذا.. ولقد استلهم الدكتور هيكل فكرته في التواصل التاريخي إذا من التراث الإسلامي والعربي كما استلهمه من قبله ابن خلدون وعلى أساس هذه الفكرة بدأ يدعو إلي استثمارها في تغيير الواقع عن طريق دعوته إلي إحياء التراث القديم سواء كان هذا التراث إسلاميا أو فرعونيا عن طريق بعث حضارة الشرق بواسطة الطرائق الحديثة لا بالتكديس على أكفانها من صفائح الغرب المستعارة .. هذا الأحياء إنما يكون بتعاون العلم والأدب وبالتالي سنكون مدينين في هذا الأحياء لطرائق العلم الحديثة (فنحن إذا اقتحمنا هذه السبل فسنجد في علم الشرق وحضارته طرائق أخري قد تعاون طرائق الغرب العلمية الحديثة وقد تتفق معها على الأقل (٧٣) وبالتالي فان الفكرة والمعرفة يكونان دائما في حركة واستمرار وتواصل يأتي بالجديد لا لهدم القديم

إرادة الإنسان ودورها في حركة التاريخ عند هيكل

إن القوة التي تدفع بالتاريخ أو تسيّره هي العقل ... ومعني هذا أن كل شئ يحدث في التاريخ إنما يحدث وفق إرادة الإنسان ، وإرادة الإنسان ما هي ألا افكاره التي ترجمها إلي عمل والتفكير لا يتم في فراغ ، وإنما يتأتي دوما من قبل الإنسان في موقف يقيني .. ، ولا يوجد إنسان عقل مجرد وإنما الموجود هو الإنسان العقل المنفعل فهو ليس عقلا ولا هو انفعالا ، وإنما هو مركب من الاثنين معا لأنه دون انفعال لا يوجد عقل ولا عقل يوجد دون انفعال ،كما أن العقل يستخدم الانفعال أداة لتحقيق غاية ، لذلك يقول (فخته) (أن فينا حرية تريد أن تعمل وفينا ضمير يرسم لنا نظاما مغايرا لنظام الطبيعة ..إن الطبيعة التي علىّ أن اعمل فيها ليست شيئا غريبا عني لأنها مكونة بقوانين فكري وما هي ألا علاقات بيني وبين نفسي)(٧٤)

أما إذا أردنا أن نتعرف على رأي د . هيكل في دور الإرادة الإنسانية في حركة التاريخ فإننا نجده لا يبعد عن هذا المفهوم قيد أنمله ... ولذلك نراه يري أن حرية الفكر هي أساس النشاط العقلي (٧٥) ذلك لأن هذه الحرية تعترف للعقل والقلب والمنطق والإلهام بحقها في تنظيم حياة الفرد وحياة الجماعة بما يكفل للفرد وللجماعة الطمأنينة في حدود تقوي الله ورضاه على ما نزل بها القرآن .. لذلك نهل المسلمون من ورد هذه الحرية فغزوا بعقولهم وبقلوبهم علوم اليونان وفلسفتها وحكمتها وحكمة فارس وخيالها وشعرها ولم يكن لأحد ولا لصاحب السلطان أن يصد عن ذلك (٧٦)

ومن هنا كان للإنسان الحرية الكاملة في أن يختار الفكرة التي تدفعه ليخلق تصورا جديدا للنفس الإنسانية .. كان لهذا الإنسان إرادة ليس شانها شان النبات والجماد والحيوان تسير في الوجود على وتيرة واحدة وعلى نمط في الحياة لا يتغير، بل هي حرة تمام الحرية تتجه إلي الشئ وكان يمكنها أن تتجه إلي غيره وتسلك هذا الطريق وكان في إمكانها أن تسلك الطريق الأخر .. وبالتالي فان هذه الحرية هي حرية الفكر التي تنبعث قوتها من قوة الأيمان القائم بالنفس القوية التي امتلأت أيمانا فقالت للجبل انتقل من مكانك ينتقل .. هي هذه القوة الإنسانية التي تصل بين الإنسان وقوي الكون العليا .. هذه القوة الروحية الكبيرة هي مصدر الخلق والحياة ومصدر كل شئ موجود في الوجود (٧٧)

من هنا كانت حرية الفكر في حاجة إلي حرية التعبير عن هذا الفكر .. لذلك كانت حرية القلم هي المظهر الاسمي لحرية الإنسان في أسمي صورها ومظاهرها وحرية القلم إنما تكون حيث يمسك بالقلم رب من أربابه لا عامل من عماله .. رب تؤتيه الطبيعة من قوة الخلق والإنشاء ما لا سبيل إليها إلا في جو من الحرية المطلقة وتدفعه ليخلق هذه الحرية حوله خلقا ولو ألقي به هو في غيابات السجون بل تدفع ذكراه لخلق هذه الحرية إذا هو غيب بين صفائح القبور (٧٨)

من هنا كان إعجاب الدكتور محمد حسين هيكل بدعوة " قاسم أمين "إلي تحرير المرأة (٧٩) بمثابة رفع للواء الحرية الصحيحة والعدل في أسمي معانيه وبعث للروح المصرية حياة جديدة تكفل لها بلوغ ما ترجوه بين جماعة الأمم المتحضرة (٨٠)

هذا الإنجاز كان على الرغم من القيود التي فرضت على قاسم أمين وما لاقاه من ردود فعل حادة معادية لدعوة تحرير المرأة من الأساس .. فكل هذا لا يدعوه إلي أن يتراجع عما ذهب إليه من دعوة حتى ولو كان الثمن في ذلك حريته الشخصية فما دام فكرة حرا طليقا يعبر عما يريد فلا مبالاة بعد ذلك بما يحدث ..هذا ما يخص حرية الفكر.

أما بالنسبة للحرية الفردية .. فيمكن القول بداية أن الحرية الفردية هي قيمة يتحقق بها وجود الإنسان .. لكن ما هو تصور د . هيكل للحرية الفردية ودورها في التاريخ ؟

من المعلوم أن وجود الفرد في مجتمع ما .. هو الذي يحدد نوع الحرية المسموح له بممارستها وبالتالي نوعية الاختيار أو حرية الفرد في اتخاذ قرار ما ولم تعد المجتمعات المعاصرة قادرة على منح أفرادها جرعات من الحرية إلا بالقدر الذي لا يسئ إلي نظام تلك المجتمعات .. وبصفة خاصة نظامها الاجتماعي (٨١)

والمجتمع الذي يعبر عنه الدكتور هيكل هو المجتمع الليبرالي .. (الفكر والسلوك)لذلك إذا نظرنا إلي فكرة الحرية عند الليبراليين نجدها تفسر جانبا من أزمة انفصال المثقفين المصريين عن واقعهم (٨٢) ، ولعل الدليل على ذلك رواية(زينب) (٨٣) والتي نتعرف من خلالها على (حامد) البطل البيروني المتمرد على مجتمعه في الجو الفلسفي الذي ولد فيه .. وقد كان هيكل من طلائع الشباب الليبرالي وجاء (حامد) نموذجا لجيله بآماله وآلامه .. بوهمه وخيالاته وتنافره مع بيئته ، ومن المعلوم أن الفردية هي لباب الفلسفة الليبرالية .. وهذه الفلسفة تحدد بالضرورة

، وموقفه بوصفه مثقفا يعد نوعا من التفكير الفردي يستند في أساسه الفلسفي إلي مذهب المنفعة. (٨٤)

إذا فهذا المفهوم الليبرالي للحرية يصل بنا إلي التحلل من فكرة الضرورة الاجتماعية لأن نهاية (حامد) في رواية (زينب) تؤكد هروبه من الحياة وموقفه هذا إدانة مادية ملموسة تؤكد عجزة عن أن يصل بفكرة الليبرالي إلي إقامة علاقة ما مع المجتمع .. وما الهروب من المجتمع ألا أية فشله في فهم طبيعة العلاقات الاجتماعية في المجتمع وليس هروبه إلي الصحراء فيه تحقيق لحريته . . ، فالإنسان في الصحراء ليس حرا (٨٥) وبالتالي فمفهوم الحرية بالمعني الليبرالي أثمر لنا أبطالا مأزومين منفصلين عن واقعهم يتركون أمرهم للمصادفة العشوائية تتحكم في حياتهم بحيث أنهم لا يصدرون أفعالهم عن وعي بظروف مجتمعهم (٨٦)

إلا أن التحلل من فكرة الضرورة والقول بالمصادفة(التي سبق أن أوضحناها في حديثنا عن التأثيرات الخلدونية في فكر د. هيكل لا يعتبر من لوازم فكره)إذا فما الذي دعاه إلي أن يؤمن بالمصادفة وينكر الضرورة أو الحتمية على الرغم من إيمانه الشديد نظريا وعمليا بالحتمية التاريخية أو الجبر التاريخي وإنكاره الشديد للمصادفة العشوائية ؟

بطبيعة الحال . . ورغم التزامه الحيدة والموضوعية إلا أننا وجدنا الانطباعية التأثيرية أثرت على فكره التاريخي ..إذا فلا عجب أن نجدة يؤيد فكرة المصادفة من خلال رواية (زينب) عل الرغم من ايمانه الشديد بالحتمية التاريخية أو الجبر التاريخي.

الخلاصة

وهكذا فلقد اتسمت الروح التاريخية عندالدكتورهيكل بأنها روح تلاحظ وتجرب ثم توازن وترتب ثم تستنبط بناء علي مقدمات عللية سليمة..

بهذه الروح وقف مع محمد عليه السلام في حياته ، ومع أبي بكر ، ومع عمر ، وعثمان . . الخ وقف مع كل هؤلاء وقفة محايدة ، كما وقف مع التاريخ وعظماء التاريخ في أنه كان يناقش ويحلل ويتلمس مواطن الداء ليتخذ أسباب الدواء ، لكنه رغم ذلك نجده يشذ عن قاعدة الموضوعية والحيدة ويتجه إلى النزعة التأثيرية بأن

ترك لهواه أن يتدخل فأعجب بشخصيات وأدلى برأيه في مواقف وأحداث ومن ثم كان مؤرخا انطباعيا تأثيريا

كذلك كان يرى الحدث وليد نفسه أو وقته ، وان البطل ليس وليد نفسه وإنما هو نتيجة لعلة سابقة ومقدمة لأثر لاحق ، وبالطبع هذا الرأي متأثر فيه بما وجده عند ابن خلدون ، ناهيك عما استقاه من ابن خلدون أيضا في إيمانه بالتطور وديناميكية الحياة، وبالطبع هذا فهم جديد للتاريخ استلهمه من التراث الأسلامى والعربي حيث دعوته إلى إحياء التراث القديم عن طريق بعث حضارة الشرق بتعاون العلم والأدب معا الأمر الذي يجعل الفكرة والمعرفة دائما في حركة واستمرار وتواصل يأتي بالجديد لا لهدم القديم

أيضا آمن الدكتور هيكل بالحتمية التاريخية والجبر التاريخي لكنه في نفس الوقت ينكرها ويؤمن بفكرة المصادفة رغم أنه انكرها في مواقف أخرى

وهكذا فان الدكتور هيكل وفكره التأريخي يكشف لنا عن عقلية عالم متمكن يبعث في أعماق النفس عن تقدير عظيم لهذا الهدوء الأسلوبي الذي تميز به في بحوثه حيث استطاع أن يزيح قناع الماضي وأسراره متسلحا بالاحتراس والنزاهة في كثير من استنتاجاته وبالأمانة في نقل الحوادث ، ومن ثم استطاع إضافة خبرة الماضي إلى خبرتنا من أجل أن نعمل وأن نساير الزمن خصوصا ونحن نقوم بتربية التشئ لتكوين الرجال

وبالطبع هذا العمل لن يكون صحيحا إذا نحن جهلنا سلالة من نربي وحياة أجدادهم وحالة البيئة إلي ينتمون إليها وهذا ما أمدنا به د . هيكل في سلاسة ويسر

الهوامش والمصادر

١ - هو محمد حسين عبد السلام هيكل .. ولد في العشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٨٨ م بقرية كفر غنام مركز السنبلاوين التابعة لمحافظة الدقهلية .. ، وكان والده عمدة تلك القرية ، أما جده الأكبر فكان من الرجال الصالحين صلاحا جعل أهل الناحية يعتقدون أنه من الأقطاب (أولياء الله الصالحين) .. عاش نشأته الأولى ينعم بطفولة هانئة في بيت كريم يحيطه بالرعاية الفائقة منذ كان رضيعا ، ولما بلغ الخامسة من عمره التحق بكتاب القرية فتعلم القراءة والكتابة وحفظ نحو ثلث القرآن وبعدها التحق بمدرسة الجمالية الأبتدائية بالقاهرة ، ثم مدرسة الخديوية الثانوية ، ولما أتم هذه المرحلة انتظم في مدرسة الحقوق وتخرج فيها سنة ١٩٠٩ م

عاش حياته معتادا على قراءة الكتب الأدبية تارة وتأمل الطبيعة الساحرة بين حقول قريته تارة أخرى .. ، وتشكلت قسمات شخصيته بحسن رعاية وتوجيه من صديق الأسرة أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد فأخذ ينهل من الثقافة العربية والإسلامية ما استطاع ، ثم سافر إلى فرنسا وحصل على الدكتوراه في القانون ، وعاد محملا بثقافة أوربية متنوعة الأمر الذي شكل فكره المستنير ورأيه الحر بصورة جعلته ينخرط في معترك الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية بكل جرأة ، وظل حتى توفي سنة ١٩٥٦ م (يمكن مراجعة د . طه عمران وادي - د . محمد حسين هيكل - حياته وتراثه الأدبي - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦٩ م) .

٢ - علي أدهم - بعض مؤرخي الإسلام - المقدمة .

٣ - أحمد أمين - فيض الخاطر - ص ٢١١ .

٤ - علي أدهم - بعض مؤرخي الإسلام - ص ٤ .

٥ - د . أحمد الهواري - فكرة التاريخ عند الطهطاوي - مجلة اليمن الجديد - مايو - ١٩٨٢ م

٦ - أ . ل . راوس - التاريخ أثره وفائدته - ترجمة مجد الدين ناصف، د . محمد أحمد أنيس - ص ١٥ .

٧ - أحمد أمين - فيض الخاطر - ص ١٨٣ .

٨ - د . أحمد الهواري - نقد المجتمع في حديث عيسى بن هشام - دار المعارف - ص ٢٢٠ .

٩ - علي أدهم - بعض مؤرخي الإسلام - ص ١٥ .

١٠ - المصدر السابق - ص ٥ .

١١ - المصدر السابق - ص ١٥ .

١٢ - أ . د . راوس - مصدر سابق - ص٨٣ .

١٣ - د . أحمد الهواري - نقد المجتمع - مصدر سابق - ص ٢٢١ .

١٤ - المصدر السابق – ص ٢٢٤ .

١٥ – د . أحمد الهواري ، د . قاسم عبده قاسم – الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث – دار المعارف – ص ٧ .

١٦ - يمكن مراجعة د . أحمد الهواري – البطل المعاصر في الرواية المصرية – دار المعارف ص ١٧ : ٢٠ .

١٧ - د . محمد حسين هيكل - جان جاك روسو – ص ١٧ .

١٨ – د . محمد حسين هيكل – الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة - ص ١٧٧ .

١٩ – د . حسين النجار – التاريخ والسير – ص ٢٧ .

٢٠ – المصدر السابق – ص ٣٥ .

٢١ – د . أحمد الهواري - البطل المعاصر – مصدر سابق .

٢٢ – د. حسن النجار – التاريخ والسير – ص ٨٤ .

٢٣ – د . محمد حسين هيكل – الصديق أبو بكر – ص ٥٦ ، ٥٧ .

٢٤ – المصدر السابق – ص ١١٢ ، ١١٣ .

٢٥ – المصدر السابق – ص ٦ .

٢٦ – المصدر السابق – ص ٦ .

٢٧ – د . محمد حسين هيكل – ثورة الأدب – ص ٢٤ ، ٢٥ .

٢٨ – المصدر السابق – ص ٢٩ .

٢٩ – د . محمد حسين هيكل – جان جاك روسو – ص ١٣ .

٣٠ – د . محمد حسين هيكل – الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة .

٣١ - د. محمد حسين هيكل – في أوقات الفراغ .

٣٢ – د . محمد حسين هيكل - حياة محمد .

٣٣ – د . محمد حسين هيكل – في منزل الوحي .

٣٤ – د . محمد حسين هيكل - مذكرات في السياسة المصرية ، زينب ، هكذا خلقت .

٣٥ – د . محمد حسين هيكل – الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة – ص ١١٥ .

٣٦ - د . محمد حسين هيكل - مذكرات في السياسة المصرية .

٣٧ - يمكن مراجعة د . هيكل (حياة محمد ، الإمبراطورية الإسلامية ، الصديق أبو بكر) .

٣٨ – يمكن مراجعة د هيكل (زينب ، هكذا خلقت) .

٣٩ – راجع د . ماهر حسن فهمي – المذاهب الفنية- ص ٧١ .

٤٠ – د . محمد حسين هيكل – في أوقات الفراغ - ص٢١٣ ، ٢١٤ .

٤١ – المصدر السابق - ص ٢٢٨ .

٤٢ – المصدر السابق – ص ١٩٩ .

٤٣ – د . محمد حسين هيكل – الصديق أبو بكر – ص ٦ .

٤٤ ـ المصدر السابق ـ ص ٥١ ٠

٤٥ ـ د ٠ محمد حسين هيكل ـ ثورة الأدب ـ ص ٨٤ ٠

٤٦ ـ د ٠ محمد حسين هيكل ـ الصديق أبو بكر ـ المقدمة ٠

٤٧ ـ د ٠ محمد حسين هيكل ـ عثمان بن عفان ـ ص ٦٧ ٠

٤٨ ـ المصدر السابق ـ ٥٩ ٠

٤٩ ـ د ٠ محمد حسين هيكل ـ الإمبراطورية الإسلامية ـ ص ١١٤ ٠

٥٠ ـ د ٠ محمد حسين هيكل ـ عثمان بن عفان ـ ص ٦٤ ٠

٥١ ـ ديكارت ـ المقال في المنهج ـ ترجمة محمود الخضري ٠

٥٢ ـ د ٠محمدحسين هيكل ـ مذكرات في السياسة المصرية ـ ج ١ ـ ص ٤ ٠

٥٣ ـ د محمد حسين هيكل ـ الصديق أبو بكر ـ ص ١٤١ ٠

٥٤ ـ د ٠ محمد حسين هيكل ـ مذكرات في السياسة المصرية ـ ج ١ ـ ص ٤٠ ٠

٥٥ ـ د ٠ محمد حسين هيكل ـ عثمان بن عفان ـ ص ١٤ : ٣٧ ٠

٥٦ ـ المصدر السابق ٠

٥٧ ـ د ٠ محمد حسين هيكل ـ ثورة الأدب ـ المقدمة ٠

٥٨ ـ د ٠محمدحسين هيكل ـ في أوقات الفراغ ـ ص ٢١٤ ٠

٥٩ ـ د ٠ محمد حسين هيكل ـ الصديق أبو بكر ـ ص ١٥٦ ٠

٦٠ ـ د ٠ طه حسين ـ فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ـ ص ٤٣ ٠

٦١ ـ د ٠ إسحاق عبيد ـ معرفة الماضي ـ دار المعارف ـ ط١ ـ ١٩٨١ ـ ص ٣٨ ٠

٦٢ ـ د ٠ محمد حسين هيكل ـ الصديق أبو بكر ـ ص ١٥٦ ٠

٦٣ ـ د ٠ حسين النجار ـ التاريخ والسير ـ ص ٦٩ ٠

٦٤ ـ د ٠ محمد حسين هيكل ـ الصديق أبو بكر ـ ص ١٥٦ ٠

٦٥ ـ ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص ٢٤٩ ٠

٦٦ ـ د ٠ محمد حسين هيكل ـ ثورة الأدب ـ ص ١١٢ ، ١١٣ ٠

٦٧ ـ د ٠ إسحاق عبيد ـ معرفة الماضي ـ ص ٢٩ ٠

٦٨ ـ ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص ٤٥٠ ٠

٦٩ ـ د ٠محمد حسين هيكل ـ ثورة الأدب ـ ص ١٢١، ١٢٢ ٠

٧٠ ـ المصدر السابق ـ ص٢١٨ ، ٢١٩ ٠

٧١ ـ سورة الروم ـ آية ٥٤ ٠

٧٢ ـ سورة الحجرات ـ آية ١٣ ٠

٧٣ ـ د ٠ محمد حسين هيكل ـ ثورة الأدب ـ ص ٢١٥ ٠

٧٤ ـ د ٠ إسحاق عبيد ـ معرفة الماضي ـ ص ٧٣ ٠

٧٥ ـ د ٠ محمد حسين هيكل ـ ثورة الأدب ـ ص ٥٧ ٠

٧٦ – د . محمد حسين هيكل – الشرق الجديد – ص ٢٣ .

٧٧ – د . محمد حسين هيكل – ثورة الأدب – ص ١٧ ، ١٨ .

٧٨ – المصدر السابق – ص ١٧ .

٧٩ – د . محمد حسين هيكل – في أوقات الفراغ ، تراجم مصرية وغربية .

٨٠ – د . محمد حسين هيكل – تراجم مصرية وغربية .

٨١ – د . احمد الهواري – نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر – ص٨٢ .

٨٢ – المصدر السابق – ص ١٢٨ .

٨٣ – د . محمد حسين هيكل – زينب .

٨٤ – د . احمد الهواري – البطل المعاصر في الرواية المصرية – ص ٨٦ ، ٨٧ .

٨٥ – د . احمد الهواري – نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر – ص ١٢٩ .

٨٦ – المصدر السابق .